جامعة ديالى / كلية التربية للعلوم الانسانية الصف : الرابع

قسم اللغة العربية المادة :فقه اللغة

أستاذ المادة : م . د . زينب محمد صالح

المحاضرات الأسبوعية

أولا : وصف مفردات المادة :

- التعريف بفقه اللغة وعلم اللغة والفرق بينهما .
- موضوعات فقه اللغة وأهدافه .
- جهود العلماء في التأليف في اللغة العربية .
- اولا: جهود القدامى : ونركز على جهود (ابن جني ، ابن فارس ، الثعالبي) .
- ثانيا: جهود المحدثين : وهي اكثر من ان تحصى .
- نظريات نشأة اللغة .
- التعريف بأهم فصائل اللغات ، اللغات الجزرية وموقع اللغة العربية فيها .
- الخصائص المشتركة بين اللغات الجزرية .
- اللغات الجزية الشرقية ، واللغات الغربية الشمالية .
- اللغات الجزرية الغربية الجنوبية .
- اللغة العربية وظروف نشأتها (العربية الجنوبية ، العربية الباقية الفصحى) .
- اللهجات (الفرق بين اللهجة واللغة وأسباب نشأة اللهجات) .
- أهمية دراسة اللهجات العربية ، وأهم ألقابها .
- العلاقة بين لهجة تميم والحجاز .
- رواية اللغة (في عصور الاحتجاج) والتعريف بطرائق اخذ اللغة .
- الظواهر اللغوية ووسائل تنمية اللغة .
- خصائص العربية
- أولا : الإعراب وأصالته في اللغة العربية .
- ثانيا : الاشتقاق .

- ثالثا : القياس تعريفه وأنواعه وموقف العلماء منه .
- رابعا : الترادف ، تعريفه وأهم أسباب نشأته وموقف العلماء منه .
- خامسا : المشترك اللفظي : تعريفه وأهم أسباب نشأته وموقف العلماء منه .
- سادسا: الأضداد تعريفه وأهم أسباب نشأته وموقف العلماء منه .
- وسائل نمو اللغة :
- أولا : الاشتقاق ، تعريفه وأنواعه وموقف العلماء منه
- ثانيا : النحت ، تعريفه وأنواعه وموقف العلماء منه
- ثالثا : التعريب ، تعريفه ووسائل معرفة المعرب والدخيل باللغة واللفظ المولد وموقف العلماء منها .
- النظام الصوتي للغة العربية .
- آلية النطق وأصوات اللغة : التعريف بنشأة الصوت لدى الإنسان وجهاز النطق لديه .
- مخارج الأصوات بين القدماء والمحدثين من العلماء .
- صفات الأصوات لدى القدماء والمحدثين من العلماء .
- دراسة لبعض الظواهر الصوتية (المماثلة الصوتية وأنواعها) و(المخالفة الصوتية وأنواعها) .
- المعجم العربي : التعريف بالمعجم في اللغة والاصطلاح ، وظيفة المعجم
- الفرق بين المعجم والقاموس وطريقة عمل المعجم وأنواع المعاجم
- معجمات الألفاظ ماهي ؟ مدرسة المخارج ، مدرسة الترتيب الألف بائي: أنواعها
- تكملة أنواع مدرسة الترتيب الألف بائي ، مدرسة الأبنية في المعاجم
- معجمات المعاني التعريف بها وكيف نشأت وأهم معجماتها .

ثانيا : مصادر المادة :

١- فقه اللغة الدكتور حاتم الضامن ، وهو الكتاب المنهجي .
٢- فصول في فقه العربية : الدكتور رمضان عبد التواب .
٣- دراسات في فقه اللغة : صبحي الصالح .
٤- فقه اللغة العربية : الدكتور كاصد ياسر الزيدي .
٥- فقه اللغة : الدكتور علي عبد الواحد وافي .
٦- فقه اللغة : محمد المبارك .
٧- فقه اللغة مناهله ومسائله : الدكتور محمد اسعد النادري .

المحاضرات :

فقه اللغة وعلم اللغة : فقه اللغة وعلم اللغة:

من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة؛ لأن جل مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديمًا وحديثًا، وقد سمح هذا التداخل أحيانًا بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى، حتى غدا العلماء يسردون البحوث اللغوية التي تسلك عادة في علم اللغة، ثم يقولون: وفقه اللغة يشمل معظم البحوث السابقة، ولا سيما إذا قورنت هذه البحوث بين لغتين أو لغات متعددة .

وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة اللغوية، من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما، وجدنا أن علم اللغة عند الغرب: Linguistiqus ou Science Du Langage، أي: العلم المختص بالكلام أو اللغة؛ واسم فقه اللغة عندهم: "philologie"، وهي كلمة مركبة من لفظين إغريقيين أحدهما philos بمعنى الصديق، والثاني Logos بمعنى الخطبة أو الكلام، فكأن واضع التسمية لاحظ أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام، للتعمق في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه.

وعلى هذا النحو كان العلماء في عصر إحياء العلوم يفهمون "فقه اللغة"، بل كان هذا الاسم إذا أطلقوه لا ينصرف إلّا إلى دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية؛ من حيث قواعدهما، وتاريخ أدبها، ونقد نصوصها، وأصبحنا اليوم نعد هذه الدراسة متحفية، ونسميها: "فقه اللغة الاتباعي" philologie classique

وربما لا يكون مفهوم علمائنا القدامى لـ"فقه اللغة" شديد الاختلاف عما أصبحنا نسميه: "فقه اللغة الاتباعي" إلّا في مواطن قليلة؛ فسنرى أن كثيرًا من مباحث القوم في اللغة كان يتناول العربية الفصحى؛ من حيث قواعدها، وتاريخ أبدبها، ونقد نصوصها، فقابلت الفصحى عندهم الإغريقية واللاتينية عند الغرب.

ومن الفروق بين فقه اللغة وعلم اللغة أن فقه اللغة كمصطلح كان أسبق بالظهور من علم اللغة ، وفقه اللغة في دراسته أوسع من علم اللغة ونتائج علم اللغة تدخل في دراسة فقه اللغة ، وفقه اللغة يتخذ اللغة وسيلة لدراسة التاريخ البشري والتطور الحضاري في حين أن علم اللغة يدرس اللغة في ذاته ومن أجل ذاتها .

موضوعات فقه اللغة وأهدافه

من موضوعات فقه اللغة ما يأتي :

١- القول في أصل اللغة ، والخلاف في ذلك

٢- خصائص اللغة العربية وما تنطوي عليه من أسرار وجمال

٣- معرفة سنن العرب في كلامهم ، واساليبهم .

٤- علم الاصوات اللغوية

٥- لهجات العرب واختلافها .

- **من أهداف فقه اللغة :**

١- التمكن من النطق السليم بمعرفة مخارج الأصوات .

٢- مواجهة ما يحاك ضد العربية من مؤامرات كتهامها بالصعوبة .

٣- سد الحاجة إلى الكلمات والمصطلحات في العلوم الجديدة ، ومواكبة التطور .

- **مناهج البحث اللغوي :**

للبحث اللغوي مناهج معروفة من أهمها:

١- المنهج الوصفي : وهو المنهج الذي يقوم على وصف ظاهرة في لغة ما في زمان محدد ومكان معين ، وهو منهج يقوم على الاستقراء ووصف الظاهرة وصفًا دقيقا ولا يتعدى الوصف إلى إصدار الأحكام أو التعليلات ، وفي المنهج الوصفي لابد أن تأخذ اللغة ممن يمثلها التمثيل الصحيح أو بعبارة أدق من شخص لم يتأثر كلامه بلغة أخرى غير اللغة المدروسة وهو ما يسمى بالراوي الحكيم . ويسمى المنهج الوصفي أيضا بالمنهج الساكن أو الثابت ، ويرجع الفضل في وضع أسس هذا المنهج إلى العالم اللغوي دي سوسير .

٢- المنهج التأريخي : وهو المنهج الذي يدرس الظاهرة اللغوية في لغة ما ويتتبعها عبر أزمنة مختلفة ، لذا يلاحظ هذا المنهج التطور الذي طال هذه الظاهرة وقد يجد لها الأسباب والعلل التي قادت إلى هذا التطور ويسمى هذا المنهج بالمنهج المتحرك ويعتمد المنهج التأريخي في عمله على المنهج الوصفي .

٣- المنهج المقارن : وهو المنهج الذي يهدف إلى التأصيل ويبحث عن أصل اللغات ويحاول إرجاع اللغات إلى أسر بحسب القرب بينها لذا يقوم المنهج المقارن بدراسة الظاهرة اللغوية بين لغتين أو أكثر تعودان إلى أصل واحد أو بين لهجتين أو أكثر ترجعان إلى لغة واحدة . وبدأ المنهج المقارن في الظهور والانتشار في القرن التاسع عشر الميلادي ومن أعلامه راسك جريم وبوب .ومن أهم النتائج المتحصلة من هذا المنهج هو تقسيم لغات العلم إلى تسع أسر من أشهرها اللغات الهندية الأوربية ، وأسرة اللغات السامية ، والحامية .ويدخل المنهج الوصفي في أساسيات المنهج المقارن

٤- المنهج التقابلي : وهو المنهج الذي يقوم بدراسة لغتين لا تنتميان إلى أصل واحد بهدف الوصول إلى نقاط التشابه والاختلاف بينهما لتيسير تعليم اللغات لغير الناطقين بها ويتخذ هذا المنهج من المنهج الوصفي أساسا في عمله .

- **منهج فقه اللغة واستقلاله:**

حين نأخذ بهذا الاصطلاح ، يسهل علينا أن نحدد نطاق فقه اللغة، سواء أتعلق بعرض المباحث القديمة عرضًا جديدًا ، أم بقوانين علم اللغة في العصر الحديث، فليس شرطًا لازمًا أن يتحدث العالم اللغوي بعدة لغات؛ لأن كثيرًا من علماء اللغة وفقهائها المشاهير لم يكونوا قادرين على الاستخدام العمليّ لأية لغة غير لغتهم القومية على أننا لا نجحد الثمرات التي يجنيها فقه اللغة إذا أجاد تلك اللغات قراءة وكتابة وحديثًا، فلا ريب أنها توطئ لمباحثه ، وترفده بالدقة فيما يستخلصه من الأحكام.

وفي دراسة لغتنا العربية ، بخاصة أعظم بالباحث إذا كان ملمًّا ببعض اللغات السامية؛ كالسريانية والعبرية! فبهذا الإلمام يلاحظ مواطن التقارب والاختلاف، والأخذ والاقتباس.

ومنهج فقه اللغة في البحث مستقلٌّ كل الاستقلال عن مناهج العلوم الأخرى، فيجب إقصاء التفكير الفلسفي عنه، لئلَّا تجيء الأحكام فيه مطبوعة بالطابع الغيبي أو "ما وراء الطبيعة"، أو المنطق الصوري.

ولعل فقه اللغة في آثار علمائنا القدامى لم يأت بالكثير من الآراء الأصلية؛ لأنهم عدوه جزءًا لا يتجزأ من التفكير الفلسفي القديم ، ولاسيما التفكير اليوناني الذي كان يرى أن "دراسة اللغة اليونانية في تراكيبها وأساليبها تصدق على جميع لغات العالم؛ إذ لا مناص من أن تجري تلك اللغات على مقياس اليونانية".

وعندما نطرح جانبًا كل أثر للمباحث التي لا تتعلق باللغة تعلقًا وثيقًا، نستطيع أن نعرف فقه اللغة بأنه "منهج للبحث استقرائي وصفي

يُعرَف به موطن اللغة الأول وفصليتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة، الشقيقة أو الأجنبية، وخصائص أصواتها، وأبنية مفرداتها وتراكيبها، وعناصر لهجاتها، وتطور دلالتها، ومدى نمائها قراءة وكتابة".

والبحوث الأساسية المذكورة في التعريف تتعلق بعلوم ثلاثة:

١- التاريخ: لمعرفة موطن اللغة الأول، وروابط القربى بينها وبين اللغات الإنسانية الأخرى، وتنوع لهجاتها، وتطور خطها وكتابتها.

٢- علم الصوت: لبحث لهجات اللغة وأصواتها، ومعرفة أنواع التطور الصوتي فيها.

٣- علم الدلالة: لبحث تطور ألفاظها وما تفيده من المعاني.

ولقد انحصرت مناهج العلماء في القرن التاسع عشر في دراسة اللغة من وجهة النظر التاريخية١، فأعلن كبارهم: "أن علم اللغة تاريخي٢".

وأضاف كثير منهم إلى الناحية التاريخية معرفة التطور الذي أصاب اللغات في مختلف العصور.

أما القرن العشرون فقد طبع بطابع الوصفية، وتناول العلماء فيه اللغات بدراسة خصائصه الصوتية والتعبيرية، فكانت مباحثهم مجموعة مستقلة من المواد المتداخلة ؛ كالأصوات والتشكيلات والمعجمات والدلالات وما يمكن أن يسمى: "علم الاجتماع اللغوي.

في ضوء هذه الدراسة الوصفية، انطلقوا يعالجون الأصوات الإنسانية بالبحث العميق، فقارنوا بين الحروف وصفاتها، ودرسوا أعضاء جهاز النطق، وأخضعوا ذلك كله للملاحظة المباشرة، وسنرى أن العرب برزوا في ذلك منذ قرون في علمي التجويد والصرف.

وبحثوا في اشتقاق الكلمات، وأصولها، وصيغها، وأبنيتها، وسمعاها، وقياسها.

ثم عنوا بدراسة معاني الألفاظ ودلالاتها، ملاحظين ما بينها وبين الاشتقاق من اتصال وثيق. طور التأليف في فقه اللغة عند العرب:

إن التأليف في فقه اللغة قد مَرَّ بأدوار جديرة أن تسجل، تقف الباحث على نشأة هذا العلم وتطوره، وإن من العسير استيعاب جميع الكتب المتعلقة بفقه اللغة تعلقًا غير مباشر؛ كالمصنفات النحوية والصرفية، والمباحث البلاغية، ووجوه القراءات المتواترة والشاذة، فلا بد لنا أن نقصر حديثنا على التآليف التي توفر أصحابها على دارسة ما يرتبط ارتباطًا قويًّا بفقه اللغة علمًا مستقلًّا قائمًا بنفسه، لا يناقض التعريف الذي قدمناه له.

لعل أقدم ما وصلنا من هذه الدراسات مباحث الأصمعي "أبي سعيد عبد الملك بن قُرَيْب"، المتوفي سنة ٢١٥هـ، عن الاشتقاق في العربية، وفي تسمتيتها فقه اللغة كثير من للتجوز؛ لأنها لا تعدو ملاحظات عامة اتسع القول فيها فيما بعد، وأوضحت جزءًا هامًّا من هذا العلم العظيم.

ثم أنشأ ابن جني "أبو الفتح عثمان" المتوفي سنة ٣٩٢هـ ، الفقيه اللغوي العبقري كتابه "الخصائص"، وراح يناقش فيه بفكره الثاقب ومنطقه السليم أبحاثًا خطيرة في أصل اللغة "أإلهام هي أم اصطلاح" وفي مقاييس العربية، واطرادها وشذوذها ، وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين، والاشتقاق الأكبر، وتركب اللغات، واختلاف اللهجات، ومع أن "خصائص" ابن جني أجدر الكتب أن تسمى بفقه اللغة، ضنَّ عليها مؤلفها بهذا الاسم!

أما أحمد بن فارس "أبو الحسين القزويني" المتوفي سنة ٣٩٥هـ ، وهو أستاذ الصاحب بن عباد ، المتوفي سنة ٣٨٥هـ ، فقد خلع على مباحثه في نشأة العربية اسم: "الصاحبي في فقه اللغة ، وسنن العرب في كلامها"، وذهب إلى أن اللغة إلهام وتوقيف، مستدلًّا بقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} . على أنه ضمَّن كتابه هذا بعض المباحث الهامة حقًّا في فقه العربية ؛ كخصائص هذه اللغة، واشتقاقها، وقياسها، ومترادفها، ومجازها، واشتراكها، ونحتها، واختلاف لغاته ولهجاتها.

ونرى الثعالبي "أبا منصور عبد الملك بن محمد"، المتوفى سنة ٤٢٩هـ، ينشئ بعد ذلك كتابه "فقه اللغة" الذي لا تجد اسمه إلّا كالثوب الفضفاض عليه، فإنه لم يضمنه إلّا بعض المباحث القليلة التي يمكن أن تتعلق بهذا العلم، كإيراده بعض الألفاظ العربية التي نسبها أئمة اللغة إلى الرومية، أو بعض الأسماء القائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد، أو الأسماء التي تفردت بها الفرس دون العرب، فاضطرت العرب إلى تعريبها أو

تركها كما هي، أو الأسماء التي ماتت فارسيتها، مع أن عربيتها ما تزال مستعملة محكية؛ وهذه المباحث مبثوثة في الباب التاسع والعشرين من كتابه، ولا تشغل أكثر من خمس عشرة صفحة.

أما ابن سيده "أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي"، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، فقد عرض في كتابه "المخصص" لبعض البحوث المتعلقة بنشأة اللغة العربية، وبالترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق، وتعريب الألفاظ الأعجمية، ونحو ذلك، والمخصص يقع في سبعة عشر جزءًا، وهو حسن التنسيق دقيق.

ويتوفر الجواليقي "أبو منصور، موهوب بن أحمد"، من علماء القرن السادس الهجري، بوجه خاص على دراسة "المعرب من الكلام الأعجمي"، وكتابه مرتب على حروف المعجم، ويتلوه البشبيشي المتوفى سنة ٨٢٠هـ بكتابه "التذليل والتكميل" لما استعمل من اللفظ الدخيل".

ثم يجمع جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، من علماء القرن التاسع الهجري، كتابه العظيم "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" من أكثر الكتب المتقدمة، ويزيد عليها بعض الأبحاث الجديدة، ولعل كتابه – بتنوع أبوابه، واتساع أغراضه– ألصق المؤلفات بفقه اللغة؛ ففيه تقرأ عن نشأة اللغات ، وتداخلها ، وتوافقها ، والمصنوع والفصيح ، والمستعمل والمهمل ، والحوشي والغريب ، والمعَرَّب والمولَّد ، والاشتقاق والاشتراك ، والترادف والتضاد، والنحت، والتصحيف، والتحريف، والشوارد والنوادر، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم ، ويقع في جزئين كبيرين.

وفي القرن الحادي عشر يعنى شهاب الدين الخفاجي خاصة بالألفاظ الدخيلة على العربية، فيؤلف في ذلك كتابه "شفاء الغليل، فيما ورد في كلام العرب من الدخيل".

نظريات نشأة اللغة :

لا شك أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى المجتمع نفسه، وإلى الحياة الاجتماعية. فلولا اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض، وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار، والتعبير عما يجول بالخواطر من معانٍ ومدركات، ما وجدت لغة ولا تعبير إرادي.

ولا شك كذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية ، فتخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجميعة ، وما تقتضيه هذه الحياة من شؤون فليست المشكلة إذن في البحث عن الأسباب التي دعت إلى نشأة اللغة، ولا في البحث عمن أنشاها، وإنما المشكلة في البحث عن العوامل التي دعت إلى ظهورها في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات، والكشف عن الصورة الأولى التي ظهرت بها هذه الأصوات ، أي: الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة، وتوضيح الأسباب التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره.

وعلى ضوء هذه الحقائق سنناقش النظريات التي قيلت في نشأة اللغة، فنرفض كل نظرية تذهب في ذلك مذهبًا لا يتفق مع هذه الحقائق المقررة، أو تغفل المشكلة الرئيسية التي نحاول حلها.

هذا، وأهم ما قيل بهذا الصدد يرجع إلى أربع نظريات:

النظرية الأولى: النظرية التوقيفية

تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى الهام إلهيٍّ هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء، وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت ، وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية كابن فارس في كتابه الصاحبي ، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامي في كتابه "فن الكلام" والفيلسوف دوبونالد في كتابه التشريع القديم .

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلًا عقليًّا يعتد به٥. أما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل ، وبعضها يكاد يكون دليلًا عليهم لا لهم. فالمؤيدون لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} وهذا النص كما ترى ، ليس صريحًا كما يدعون؛ إذ يحتمل أن يكون معناه – كما ذكر ذلك ابن جني في كتابه الخصائص، وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين: إن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ. أما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة، فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين ؛ إذ يقول: "والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول: وهذا النص، كما ترى، لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية ، بل يكاد يكون دليلًا عليهم. وفضلًا عن هذا كله، فإن هذه النظرية تغفل إغفالًا تامًّا المشكلة الرئيسية التي تهمنا، وحدُّها في هذا البحث، والتي حددناها تحديدًا دقيقًا في صدر هذه الفقرة.

النظرية الثانية: نظرية المواضعة والاصطلاح

تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالًا، وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني ديموكريت –من فلاسفة القرن الخامس ق م– وفي العصور الوسطى كثير من الباحثين في فقه اللغة العربية، وفي العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث، وريد، ودجلد ستيوارث .

وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي، بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالًا ولا تخلق خلقًا، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها. هذا إلى أن التواضع على التسمية

يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون ، فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل. وفضلًا عن هذا كله، فإن هذه النظرية تغفل المشكلة الرئيسية التي تهمنا وحدها في هذا البحث ، والتي وضحناها في صدر هذه الفقرة.

فلسنا هنا بصدد نظرية جديرة بالمناقشة، بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم يحمل في طيه آية بطلانه، وقد ذهب المتعصبون له في تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة، تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة

الصواب ونطاق المعقول؛ وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد: "إن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء، فيضعوا لكل منها سمة ولفظًا يدل عليه ويغني عن إحضاره أمام البصر. وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلًا على شخص، ويومئوا إليه قائلين: إنسان، إنسان، إنسان، فتصحب هذه الكلمة اسمًا له، وإن أرادوا سمة عينة أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا: يد، عين، رأس، قدم ... ويسيرون على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء وفي الأفعال والحروف وفي المعاني الكلية والأمور المعنوية نفسها، وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلًا، ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم كلمة "مرد" بدل إنسان وكلمة "سر" بدل رأس ... وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية.

النظرية الثالثة: نظرية غريزية التعبير بأصوات مركبة:

تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة ، زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني ، وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به، كما أن غريزة "التعبير الطبيعي عن الانفعالات" تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة "انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء ..." كلما قامت به حالات انفعالية معينة "الغضب، الخوف، الحزن، السرور ... إلخ"، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات، وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة ، فأخذت تنقرض شيئًا فشيئًا حتى تلاشت، كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة. ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألماني مكس مولر والعلامة الفرنسي رينان .

وقد اعتمد مكس مولر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوربية؛ فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي تشعبت منها هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهودها. وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معانٍ كلية ، وأنه لا تشابه مطلقًا بين أصولها ، وما تدل عليه من فعل أو حالة.

ففي دلالتها على معانٍ كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها؛ لأن التواضع فضلًا عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، يتوقف هو نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون، وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة الصوتية ؛ لأن المفروض أن المتواضَعَ عليه هو أول ما نطق به الإنسان من هذه اللغة، ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة؛ لأننا بصدد ألفاظ تدل على معانٍ كلية، أي: على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها.

وفي عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه، برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية –أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات– وأصوات الحيوانات والأشياء، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التي سنتكلم عنها قريبًا.

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة لأصوات الإنسان الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء، لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره، وهو أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل؛ للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة١.

وهذه النظرية –على ما فيها من دقة وطرافة وعمق في البحث– فاسدة من عدة وجوه:

١– فهي لا تحل شيئًا من المشكلة التي نحن بصددها، بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضًا، وهي مشكلة "الغريزة الكلامية".

٢– هذا إلى أن ما تقرره يعتبر –من بعض الوجوه– من قبيل تفسير الشيء بنفسه، فكل ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية: "إن الإنسان قد لفظ أصواتًا مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة؛ لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات". وهذا، كما لا يخفى، مجرد تقرير للمشكلة نفسها في صيغة أخرى.

٣– على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث؛ لأنه من المقرر أن الإنسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بلفظ هذا النوع من الأصوات، بل إن هذا مشترك بين الإنسان وبعض الطيور –كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وإنما الذي يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنساني، أي: البحث عن الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة، والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره.

٤– ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسمائة –السابق ذكرها– تمثل اللغة الإنسانية الأولى، فهذه الأصول –كما تقدم– تدل على معانٍ كلية، ومن الواضح أن إدراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية، لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الإنسانية، وها هي ذي الأمم البدائية التي تُعَدُّ أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما نقول؛ فقد أجمع علماء الأنتوجغرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وإفريقيا وغيرها، على ضعف عقلياتها بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها. وقد كان لهذه العقلية صدًى كبير في لغاتها، فلا نكاد نجد في كثير منها لفظ يدل على معنًى كلي؛ ففي لغة الهنود الحمر مثلًا، يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا، ولكن لا يوجد أيَّ لفظ للدلالة على شجرة البلوط، ومن باب أولى لا يوجد أيَّ لفظ للدلالة على الشجرة على العموم، وفي لغة الهورونيين "من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية" يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدي لفظ خاص بها، ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه، فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تعلقه بالخبز، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تعلقه باللحم، وثالث في حالة تعلقه بالزبد، ورابع في حالة تعلقه بالموز، وهكذا، ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم، أو الأكل في زمن ما.

ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا "بقرب أستراليا" لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة، فإذا أرادوا وصف شيء لجئوا إلى تشبيه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة، فيقولون مثلًا "فلان كشجرة كذا" إذا أرادوا وصفه بالطول ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسمائة –السابق ذكرها– لا تمثل في شيء اللغة الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر، بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطًا كبيرًا في سبيل الرقي والكمال، ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلّا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها، ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا، فيقرر أنها مجرد أصول نظرية، وأنها لم تكن يومًا ما موضوع لغة إنسانية٤.

النظرية الرابعة : نظرية محاكاة اصوات الطبيعة

تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية "التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة، الأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها؛ كصوت الضرب والقطع والكسر ... إلخ" وسارت في سبيل الرقيّ شيئًا فشيئًا تبعًا لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان ... وما إلى ذلك، وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم المحدثين من علماء اللغة، وعلى رأسهم العلامة وتني، وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة، ومن مؤلفي العرب بالعصور الوسطى؛ فقد تحدث عنه ابن جني، المتوفى عام ٣٩٢هـ، أي: من نحو ألف سنة، في كتابه الخصائص في أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله .

فبحسب هذه النظرية يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التي تعبر عن الانفعالات؛ كأصوات الفرح والحزن والرعب وما إليها، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء؛ كدوي الريح وحنين الرعد، وخرير الماء، وحفيف الشجر، وجعجعة الرحى، وقعقعة الشنان، وصرير الباب، وصوت القطع والضرب ... وهلم جرًا. وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت المحاكى ما زود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع، وكانت لغته في مبدأ أمرها محدودة الألفاظ، قليلة التنوع، قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التي أخذت عنها، قاصرة عن الدلالة على المقصود، ولذلك كان لابد لها من ساعد يصحبها؛ فيوضح مدلولاتها، ويعين على إدراك ما ترمي إليه، وقد وجد الإنسان خير مساعد لها في الإشارات اليدوية والحركات الفطرية التي تصحب الانفعالات، فكان في مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات، ثم توسع الإنسان في استخدامه؛ فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها، وما إلى ذلك، فازدادت أهميته في الحديث، وسد فراغًا كبيرًا في اللغة الصوتية، ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعًا لارتقاء التفكير، واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضارته، وتستغني شيئًا فشيئًا عن مساعدة الإشارات، وتبعد عن أصولها تأثير عوامل كثيرة؛ كالتطورات الطبيعية التي تعتور الصوت وأعضاء النطق الإنساني، وكعلاقات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات ... وما إلى ذلك من الأمور التي سنعرض لها بتفصيل في الباب الثاني من هذا الكتاب.

وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة، وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقًا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية، وهي إلى هذا وذاك تفسر المشكلة التي نحن بصددها، وهي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات

خاصة، والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره، ولم يقم أيّ دليل يقيني على خطئها، ولكن لم يقم كذلك أيَّ دليل يقيني على صحتها، وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها، وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها.

ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل؛ فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية "أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء.." فيحاكي الصوت قاصدًا التعبير عن مصدره، أو عن أمر يتصل به، وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتمادًا جوهريًّا في توضيح تعبيره الصوتي على الإشارات اليدوية والجسمية، ومن المقرر أن المراحل التي يختارها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر.

ومن أدلتها كذلك ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم البدائية؛ ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه، ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وإبهامها، وعدم كفايتها للتعبير، لا يجد المتكلمون بها مناصًا من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية في أثناء حديثهم؛ لتكملة ما يفتقر إليه من عناصر وما يعوزه من دلالة، ومن المقرر أن هذه الأمم لبعدها عن تيارات الحضارة، وبقائها بمعزل عن أسباب النهضة الاجتماعية، تمثل إلى حد كبير النظم الإنسانية في عهودها الأولى.

فصائل اللغات

أشهر فصائل اللغات

لعل أفضل النظريات في تقسيم اللغات هي التي تعوّل على صلات القرابة اللغوية، فتنشيء من كل مجموعة مماثلة أو متشابهة في الكلمات وقواعد البنية والتراكيب فصيلة من الفصائل، تؤلف بينها غالبًا روابط جغرافية وتاريخية واجتماعية.

وعلى هذا الأساس لاحظ العلماء مجموعتين هامتين متميزتين، سموا إحداهما: الفصيلة الهندية – الأوربية Indo Europeenne –، والأخرى الحامية – السامية Chamito – Samitiques، وتنبهوا إلى صلات القرابة بين اللغات الداخلة تحت كلٍّ منهما على حدة، وإلى الصفات المشتركة بين الفصيلتين كلتيهمتا، ثم جاء ماكس مولر Max Moller بتقسيمه الثلاثي للغات، حين سمى طائفة من اللغات الأسيوية والأوربية التي لا تدخل تحت الفصيلتين السابقتين باسم اصطلاحي هو الفصيلة الطورانية Touranienne. وإنما كان الاسم اصطلاحيًّا؛ لأن أفراد الفصيلة الأخيرة متنوعة جدًّا، ومتباعدة جدًّا، وليس بينها روابط لغوية واضحة، وهذا ما دعا المحدثين من علماء اللغة إلى تقسيم ما بقي من اللغات الإنسانية إلى تسع عشرة فصيلة، تنفرد كل فصيل منها بروابط من

القرابة اللغوية في الأصول والقواعد والتراكيب، وبذلك أصبحت فصائل اللغات الإنسانية إحدى وعشرين؛ أهمها الأوليان، والباقية ثانوية متفرقة في أنحاءٍ مختلفة من العالم، ولا بد من كلمة عجلى حول الفصيلتين الهامتين.

أ- الفصيلة الهندية – الأوربية:

وهي أكثر اللغات الإنسانية انتشارًا، والشعوب الناطقة بها جليلة الأثر في الحضارة الإنسانية الحديثة، ومن العسير تحديد موطنها الأصلي، فمن ذاهب إلى نشأتها في آسية بمنطقة التركستان، ومن قائل بنشأتها في المناطق الروسية بأوروبة الشرقية، ومن أنها في مناطق بحر البلطيق.

وهي تشتمل على ثمانٍ من طوائف اللغات:

١- اللغات الآرية: بفرعيها الهندي والإيراني.

٢- اللغات اليونانية: وتشمل اليونانية القديمة، واليونانية الحديثة التي قامت على أنقاض القديمة في القرون السابقة للميلاد، ولغة اليونان في العصر الحديث.

٣- اللغات الإيطالية، وأهم فروعها: اللاتينية التي تشعبت منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية ولغة رومانية.

- اللغات الجرمانية، وأهمها شعبتان: شعبة اللغات الجرمانية الغربية، وفيها الإنجليزية –السكسونية، والإنجليزية الحديثة، والهولاندية والألمانية، وشعبة اللغات الجرمانية الشمالية، وهي لغات الدانيمرك والسويد والنرويج.

٥- اللغات السلافية: وهي شعبتان صقلبية وبلطيقية؛ فمن الصقلبية الروسية، والتشيكية، والبولونية، والبلغارية الحديثة، ومن البلطيقية: الليتوانية، والبروسية القديمة.

٦- اللغات الأرمنية.

٧- اللغات الألبانية.

٨- اللغات الكلتية التي كان ينطق بها شعوب الكلت Les Cletes، وقد غلبتها الآن اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، وإن بقيت ظواهر منها في لهجات إيرلندا ومنطقة البريتون Bretagne غربي فرنسا.

ب- الفصيلة الحامية – السامية:

وليست المناطق التي تشغلها هذه الفصيلة شديدة الاتساع كالمناطق التي تشغلها الفصيلة الأولى "الهندية – الأوربية" فلا يعدو ما تشغله بلاد العرب وشمال إفريقية وجزءًا من شرقي إفريقية، غير أن مناطقها تكاد تشكل منطقة واحدة متماسكة الأجزاء، مستقلة ليس فيها عنصر دخيل، وتلك مزية كبيرة من مزاياها، وهي ذات مجموعتين:

أ- مجموعة اللغات الحامية، وفيها المصرية والبربرية والكوشيتية.

وقد اصطلح على إدخالها في مجموعة واحدة، مع أن صلات القرابة بينها ضعيفة، ولذلك يعد بعضهم كل فرعٍ منها مستقلًا برأسه على حدة.

واللغة المصرية تشمل المصرية القديمة والقبطية، أما البربرية فهي لغة السكان الأصليين لشمال أفريقية "تونس ومراكش

والجزائر وطرابلس والصحراء والجزر المتاخمة لها"، وأهمها اللغة القبيلية Kbyle، والتماشكية Temachek وهي لغة قبائل التوارج Touareg "الطوارق".

وأما الكوشيتية فهي لغة السكان الأصليين للقسم الشرقي من إفريقية، وبها يتكلم نحو ثلث سكان الحبشة. وهنالك مناطق في الحبشة تتكلم بلغة سامية.

ب- مجموعة اللغات السامية، وسنتكم عنها بتفصيل بعد قليل؛ لأن لغتنا العربية تفرعت منها.

ج- فصائل اللغات الإنسانية الأخرى:

أما بقية اللغات الإنسانية الأخرى فقد ذهبت جمعية علم اللغة بباريس إلى قسمتها إلى تسع عشرة فصيلة أهمها:

١- فصيلة اللغات الطورانية؛ كالتركية والمغولية والمنشورية، وبها سمَّى ماكس مولر جميع الفصائل الباقية على سبيل الاصطلاح الخاص.

٢- فصيلة اللغات اليابانية.

٣- فصيلة اللغات الصينية - التيبيتية "ومنها لغة سيام".

٤- فصيلة اللغات الكورية "لسكان شبه جزيرة كورية".

٥- فصيلة اللغات القوقازية "ويستثنى منها اللغات القوقازية السامية، والهندية الأوروبية".

٦- لغات الهنود الحمر في أمريكا، وهم سكانها الأصليون.

٧- لغات السودان وغانة، وقد قسَّمَها العلامة Maurice Delafosse إلى ٤٣٥ لغة، ترجع إلى ست عشرة شعبة، أهمها الشعبة النيلية، والشعبة النوبية، والشعبة الاستوائية، والشعبة الكونغوية.

٨- اللغات الملايوية البولينزية Malayo - Polynesiennes ومنها الأندونيسية والميلانيزية "جزر سليمان، وسانت كروز، وتوريس".

وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس Societe de linguistique paeis بحثًا موجزًا في دراسة هذه الفصائل التسع عشرة، بإشراف الأستاذين Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen، فجاء البحث في نحو ست مئة صفحة من القطع الكبير "من ١٥٣-٧١٣"، وذلك في الكتاب الضخم الشهير "لغات العالم" " Les langues du Monde".

طريقة أخرى لتقسيم اللغات إلى فصائل:

هناك طريقة أخرى لا تعول في تقسيم اللغات على صلات القرابة اللغوية، بل تستند في هذه القسمة إلى قوانين التطور والارتقاء المتعلقة بقواعد الصرف والتنظيم.

وأشهر نظرية في هذه الطريقة هي نظرية العلامة شليجل Schlegel، التي اتبعه عليها كثير من الباحثين.

في ضوء هذه النظرية ثلاث فصائل:

١- اللغات التحليلية Analytiques.

٢- اللغات الإلصاقية Agglomerantes.

٣- اللغات العازلة isolantes.

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية نشأت عازلة، ثم تطورت فأصبحت إلصاقية، ثم ارتقت أخيرًا إلى التحليلية.

أ- واللغة العازلة هي غير المتصرفة؛ فبنية الكلمات فيها لا تتغير، وأصولها لا تلصق بها حروف زائدة لا قبلها ولا بعدها، وليس بين أجزاء تراكبيها روابط وصلات، ويدخل في هذه اللغة الصينية، وكثير من اللغات البدائية.

ب- واللغة الإلصاقية: هي لغة وصلية تمتاز بالسوابق prefixes واللواحق Suffixes، التي تربط بالأصل فتغير معناه، وعلاقته بما عداه من أجزاء التركيب، وأشهر هذه اللغات: اليابانية والتركية وبعض اللغات البدائية.

ج- واللغة التحليلية: هي المصرفة التي تتغير أبنيتها بتغير المعاني وتحلل أجزاؤها المترابطة فيما بينها بروابط تدل على علاقاتها، ومن هذه اللغات: السامية، وفي طليعتها العربية، وأكثر اللغات الهندية، والأوربية.

وأصحاب هذه النظرية يستدلون على مراحل التطور فيها بلغة الطفل ولغات الأمم البدائية، ويرون أن مرحلة التصريف والتنظيم مرحلة متأخرة في اللغات الإنسانية، ولكن هذا خطأ، فجميع الظواهر "العزل والإلصاق والتصريف" موجودة في مختلف الألسنة، ومن العسير أن تتجرد منها لغة من اللغات١.

وقد حاول كثير من الباحثين أن يقارنوا بين الفصليتين الهامتين "السامية" و"الهندية والأوربية"، والتوسع في هذا خارج عن نطاق بحثنا؛ فسنكتفي بإشارة عابرة إلى خصائص اللغات السامية تمهيدًا لبحث خصائص لغتنا العربية التي تفرعت عنها.

الساميون ومهدهم الأول:

يطلق العلماء اليوم على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية – الآشورية، لقب الساميين وكان العلامة الألماني شلوتزير أول من استخدم هذا اللقب في إطلاقه على تلك الشعوب؛ وقد شاركه عالم ألماني آخر هو أيكهورن، في أو أوخر القرن الثامن عشر، بتسمية لغات هذه الشعوب "باللغات السامية.

والتسمية لم تخترع اختراعًا، فهي مقتبسة من الكتاب المقدس الذي ورد

فيه أن أبناء نوح هم سام وحام ويافث، وأن القبائل والشعوب تكونت من سلالتهم.

ويبدو أن اللغات السامية قبل تفرقها كانت ترجع إلى أصل واحد، وتشكل شبه وحدة شعبية، إلّا أن من العسير جدًّا تعيين ذاك الأصل وتحديد هذه الوحدة؛ لأن المهد الأول للساميين ما يزال غامضًا مجهولًا، رغم أبحاث العلماء الكثيرة الواسعة الآفاق، وليس يعنينا هنا أن نعرض للآراء المتباينة بهذا الصدد، بل نتكفي بالإشارة إلى أن إرنست رينان الفرنسي وبروكلمان الإلماني، يرجحان أن الموطن الأول للشعب السامي هو القسم الجنوبي الغربي، من شبه الجريرة العربية.

وفي دائرة الدراسات السامية حظيت لغتنا العربية بكثير من العناية، فكانت في نظر بعض الباحثين، وفي طليعتهم العلامة أولسهوزن أقدم اللغات السامية، وإن كان كثير من الفقهاء اللغة وعلماء الاستشراق يرفضون هذا الرأي ولا يستسيغونه.

واللغات السامية –بوجه عام– تشترك في عدد من الخصائص الدالة على وحدة أصلها، فهي تمتاز عن سائر اللغات الأخرى بأن أصول كلماتها تتألف غالبًا من ثلاث أصوات ساكنة "ض ر ب" وإن كان بعض العلماء المحدثين يجنح إلى ثنائية الأصول السامية؛ كالأب مرمرجي الدمنيكي في كتابه "هل العربية منطقية؟ أبحاث

ثنائية ألسنية. والقائلون بثلاثية الأصول السامية يردون الرباعي منها إلى الثلاثي؛ فيردون دحرج مثلًا إلى دحر أو درج، لما فيهما من معنى الإبعاد والدفع، واللغات السامية تمتاز في دلالتها على المعنى الأصلي باعتمادها على حروف المباني، وفي تفرقتها بين المعاني المتكافئة باستخدامها حروف المعاني أو الحركات، نحو لفظ "م ل ك" فهو يدل على معنًى مشترك بين عدد من الكلمات التي تتألف من هذه الأصول الثلاثة، فمنه ملَكَ، مُلِكَ، مَلِكٌ، مُلْك، .

شجرة اللغات الجزرية :

وإذا أردنا أن نصف شجرة اللغات الجزرية لنرى كيف تفرعت عنها لغتنا العربية، وكيف امتازت عن أخواتها بخصائص مستقلة، وجدنا تلك اللغات في أصل نشأتها تنقسم إلى شرقية وغربية، فالشرقية هي اللغات البابلية – الآشورية، أو الأكادية، كمال يسميها المحدثون من فقهاء اللغة، نسبة إلى بلاد أكاد وكان الأقدمون يسمونها: "الإسفينة أو المسمارية" لأن الناطقين بها أخذوا الخط المسماري ذا الزوايا عن الشعب السومري، حين تدفقوا إلى منطقته في القسم الجنوبي من بلاد العراق، ويظن أن المتدفقين على تلك المنطقة كانوا من القبائل العربية التي توالت هجراتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد على وجه التقريب "٣٠٠٠ سنة ق. م".

والغربية: تنقسم هي الأخرى إلى شعبتين: شمالية وجنوبية، وفي الشمالية: الكنعانية والآرامية.

أما الكنعانية: فهي لغة القبائل العربية التي نزحت على الأرجح من القسم الجنوبي الغربي من بلاد العرب، واستوطنت فلسطين وسورية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط، وكان ذلك حوالي الألف الثاني قبل الميلاد "٢٠٠٠ ق. م" وهي تشمل اللهجات التالية:

١– الأجريتية: وهي أقدم لغات المجموعة الكنعانية وأشهرها، اكتشفت نقوشها سنة ١٩٢٦ في رأس شمراء على الساحل السوري للبحر المتوسط، ويرتدّ تاريخها إلى القرن ١٤ ق. م. وعن هذه الأجريتية أخذ العالم الكتابة الأبجدية.

٢– الكنعانية القديمة: وقد جاءنا بعض مفرداتها في رسائل تل العمارنة "عاصمة مصر في عهد إخناتون". كانت مدونة باللغة الأكادية، وقد تبودلت بين ولاة مصر على فلسطين، وبين فراعنة ذلك العهد "أمنوفيس الثالث، وأمنوفيس الرابع، وإخناتون" في أواخر القرن الخامس عشر، والنصف الأول من القرن الرابع عشر "١٤١١–١٣٥٨" ق. م".

٣– المؤابية١: وهي لهجة المؤالبين الذين كانوا من نسل لوط بن أخي إبراهيم الخليل، كما جاء في العهد القديم، وقد عثر على نقشٍ مدوَّن بهذه اللهجة، هو نقش ملك المؤابين ميشع، وفيه يصف انتصاره على ملك إسرائيل، وتاريخ هذا النقش لا يجاوز سنة ٩٠٠ ق. م.

٤– الفينيقية: وقد وصلت إلينا عن طريق بعض النقوش، وقطع النقود التي عثر عليها في أقدام المواطن الفينيقية "صور، صيدا، جبيل "، ولقد رحلت اللهجة الفينيقية مع أصحابها خارج الوطن الأصلي حتى استقرَّ في حوض البحر المتوسط، ولا سيما في قرطاجنة، وكانت اللهجة الشائعة في قرطاجنة هي البونية وهي متفرعة عن الفينيقية، غير أن البونية قُدِّرَ لها أن تبقى حتى القرن الخامس بعد الميلاد، فعاشت عمرًا أطول من عمر أمها الفينيقية الأصلية، وأقدم النقوش الفينيقية إنما يرجع تاريخه إلى القرنين التاسع والعاشر ق. م.

٥- العبرية: وهي أهم اللهجات الكنعانية على الإطلاق، وقد وصلت إلينا عن طريق أسفار العهد القديم، وفي ثنايا بعض النقوش واللوحات الصخرية، وأحيانًا عن طريق تلاوة اليهود لآيات التوراة وبعض الأوراد، ونحن نقصد بالعبرية طبعًا عبرية العهد القديم، وهي تختلف اختلافًا عظيمًا عن العبرية الحديثة التي أصبحت لغة الآداب اليهودية المستحدثة.

هذه هي لهجات الكنعانية: الأجريتية، والكنعانية القديمة، والمؤابية، والفينيقية، والعبرية.

وأما الآرامية: فيؤخذ من بعض الآثار الآشورية – البابلية، أن قبائلها قد هاجرت من الجزيرة أيضًا إلى أرض بابل وآشور، فيما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وقد كانت الآرامية من العنفوان والقوة بحيث استطاعت أن تفرض نفسها على جميع أخواته الشرقية والشمالية، حتى أضحت لغة التخاطب السائدة في الشرق الأدنى. وفي المرحلة الزمنية المحصورة بين سنتي ٣٠٠ق. م و٦٥٠ بعد الميلاد، كانت هذه اللغة الآرامية قد بلغت ذورة مجدها في جميع بلاد العراق من جهة، وفي سورية وفلسطين وما يجاروهما من جهة أخرى، ويقدر بعض فقهاء اللغة مساحة البلاد الناطقة بتلك اللغة في المرحلة المذكورة زهاء ٦٠٠ ألف كيلومتر مربع، ولم يكن بد من أن تتشعب هذه اللغة إلى مجموعة من اللهجات، فشملت المجموعة الشرقية منها اللهجات السائدة في بلاد العراق، وشملت المجموعة الغربية منها اللهجات الباقية المستخدمة في سورية وفلسطين وشبه جزيرة سيناء.

ملاحظة : المحاضرة لا تمثل ما قيل في الدرس باللفظ ، وهي منقولة عن المصادر السابقة ، ومن أراد تمام الفائدة فليرجع إليها كلها .